البيان النظري لعلم الاستغراب

قراءة في الجبهة الثانية من مشروع حسن حنفي

نابـــي بوعلي(*)

"من الصعب أن يأتي الإنسان إلى هذا العالم والوطن محتل ومن الأصعب أن يغادره والوطن محتل"

حسن حنفي

أولًا: تقـــديم:

يخـــوض الفيلسوف العربي المصري حسن حنفي حسنين، في متنه الفلسفي مـــشروعا فكـــريا وحضاريا أطلق عليه اسم "**التراث والتجديد**"، يجمع فيه بين التـــراث والحداثة والواقع، من منظور الحاضر وتحدياته، والماضي والتزاماته والمستقبل وآفاقه. كما يتناول فيه، جدلية الأنا والآخر، في إطار شمولي تفرضه حتمـــية التاريخ وصيرورة الحضارة والمصير. ولما كان من الصعب الحديث عن المحتوى الفلسفي للأركان الثلاثة المكونة لهذا المشروع الضخم (الماضي، الحاضـــر، الواقـــع)، فإني سأتناول الجبهة الثانية من مشروعه الفكري، والتي خصصها لبلورة وصياغة البيان النظري، الذي يعد بمثابة الإعلان الرسمي عن مـــيلاد علم جديد سماه: **علم الاستغراب**. وتأتي مساهمتنا في قراءة هذه الجبهة

(*)رئيس قسم الفلسفة، المركز الجامعي مصطفى اسطمبولي، معسكر الجزائر.

للتعريف بهذا العلم الجديد، ضمن التصور العام الذي رسمه الفيلسوف حسن حنفي أثناء رحلة إعلان المبادئ والتأسيس.

في البداية ومن نافلة القول المكرور، يمكن التأكيد بأنّ الواقع الراهن الذي تعيشه الأمة العربية اليوم، واقع مأزوم بكل المقاييس سواء على مستوى الفكر أو على مستوى الواقع، وقد كرست أجيالا متتالية لخدمة الانحطاط الفكري والتخلف الاقتصادي والاجتماعي والثقافي، والعيش دون المستوى المطلوب تحت ظلال الفكر الغربي لفترة زمنية طويلة، تعمل دائما على إعادة إنتاج نفسها، وذلك من خلال إعادة إنتاج أدوات التخلف والتخليف، وعدم الوعي الحقيقي بحركة التاريخ، وصيرورة التحولات الحضارية.

للأمم التي تقود معارك ضخمة في مختلف المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وتترجمها يوميا إلى حقائق براغماتية ملموسة، في إطار رؤية واضحة الأبعاد والمعالم الحضارية.

انطلاقا مما سبق ذكره، يمكن طرح التساؤل التالي: هل يمكن اعتبار علم الاستغراب، الذي ينظر له حسن حنفي ضرورة حضارية، وحتمية تاريخية اقتضتها طبيعة المرحلة التاريخية للأمة العربية الإسلامية، أم هو مجرد استشراق معكوس كما يرى البعض ذلك؟ وبمعنى آخر: هل علم الاستغراب هو مجرد رد فعل على الاستشراق، الذي رافق حركة الاستعمار الغربي في غزوه للحضارات والثقافات الأخرى، أم هو رؤية فلسفية عميقة تقف على إشكالية الإنسان العربي، وتنظر لبناء حضارة جديدة كما نراها نحن، ونريدها، لاكما يفرضها علينا غيرنا؟.

قـد تتعدد الإجابات عن هذا التساؤل بحجم طبيعة المشروع ذاته، من حيث منطلقاته ومبادئه، وأهدافه، وإمكانياته، وقدراته، وحدوده... لكن الحقيقة المؤكدة التـي لا جـدال فيها، هي أن الواقع الحضاري المأزوم للأمة العربية، والذي تحدثنا عنه سابقا، هو الذي دفع الفيلسوف والمفكر حسن حنفي إلى أن يستشعر ضـرورة الحاجـة إلـى تأسيس مشروعه "التراث والتجديد". حيث يتناول فيه بالدراسـة والتحليل تشريح جوانب الضعف وأسبابه، وخلفياته التاريخية، وبنية ومركبات هذا الواقع المأزوم، والبحث عن إمكانية الخلاص والتجديد، وتحرير الأنـا التي فقدت القدرة على التحدي الحضاري من أمراض التقليد القاتل الذي سبب لها الجمود والتحجر طيلة قرون من الزمن، حتى تتمكن من اللحاق بركب الأمـم المتقدمة ضمن الفضاء الحضاري العالمي. إنه مشروع يهدف بالأساس إلـى تحقيق هدفين ضروريين ومتكاملين في الوقت نفسه: أولا، إنهاء السيطرة الدائمـة للغرب، لأن الاستعمار مهما كان شكله، ليس ظاهرة طبيعية تستقر في الوعـي إلـى الأبد. وثانيا، اكتشاف إمكانيات الأنا وقدراتها، حتى تتحرر من القـيود وتعود إلى مسارها التاريخي الطبيعي، حيث تقضي على التبعية ألأبدية للآخـر، وتخرج من دائرة الاحتواء الجهنمية التي زجها الغرب فيها وفرضها علـيها، لأن منطق التاريخ يبين بما فيه الكفاية، أن الإنسان لا يمكن أن يهزم سياسيا أو اقتصاديا أو عسكريا إلا بعد أن يهزم نفسيا.

إن أهم ما يتميز به مشروع حسن حنفي، هو الشمولية للأبعاد الزمانية، إنه مـشروع ينـسحب على التراث القديم بكل مكوناته وأبنيته المعرفية(الماضي) والتـراث الغربـي ابـتداء من جذوره ومصادره وصيرورة تكونه حتى حالته

الـــراهنة وحـــدوده (المستقبل) والواقع المباشر بكل تجلياته وتعقيداته وأحداثه وأزماتـــه(الحاضـــر) مـــن دون التركيـــز على جانب واحد، وإهمال الجوانب الأخـــرى، حتـــى لا يقع المشروع في النزعة الذرية ويفتقد طابع النظرة الكلية والوحدة والانسجام.

ثانيًا: جبهات المشروع:

لقـــد بـــدأت إرهاصات ومعالم هذا المشروع الكبير الأولى تتبلور منذ سنة ١٩٥٦ لمـــا كـــان حسن حنفي يدرس في باريس، وأنّ المتتبع لمشروع حسن حنفي يدرك أنه يتكون من ثلاث جبهات هي كما يلي:

١- الجبهة الأولى:

تـــشمل الجـــبهة الأولـــى، موقف حسن حنفي من التراث وإعادة بنائه طبقا لظروف العصر، وضرورة نقد التراث نقدا موضوعيا، بدل المكوث طويلا عند حدود الدفاع عنه دون جدوى، وتحتوي هذه الجبهة على سبعة أجزاء، يحددها حسن حنفي بقوله:"قمت بالجزء الأول منه عن علم أصول الفقه بالفرنسية"مناهج الـــتأويل في علم أصول الفقه" و أخرجت الجزء الثاني" من العقيدة إلى الثورة" لإعـــادة بناء علم أصول الدين. وأعد الآن الجزء الثالث"من النقل إلى الإبداع" لإعادة بناء علوم الحكمة. ثم أبدأ في الجزء الرابع"من الفناء إلى البقاء"، لإعادة بناء علوم التصوف.ثم أبدأ في الجزء الخامس"من النقل إلى العقل"، لإعادة بناء العلوم النقلية: القرآن، و الحديث، والتفسير، والسيرة، والفقه، والجزء السادس" الوحـــي والعقـــل و الطبيعة" لإعادة بناء العلوم الرياضية والطبيعية:الحساب، والجبـــر، والهندســـة، و الفلك، والموسيقى.والطبيعة،الكيمياء والطب والصيدلة

والنـــبات والحـــيوان، ثـــم الجـــزء السابع"الإنسان والتاريخ" لإعادة بناء العلوم الإنسانية:اللغة والأدب، و الجغرافية، و التاريخ.

٢- الجبهة الثانية:

فـــي هذه الجبهة، يحاول حسن حنفي، أن يحدد موقفه من التراث الغربي، من أجل وعيه، ومعرفة أسسه ومكوناته، وتطوره التاريخي، ونقده، ووضعه في إطاره كمرحلة من مراحل التاريخ، للرد على المركزية الأوروبية التي تحاول ابـــتلاع تجـــارب الأمـــم الأخرى بل أحيانا تدميرها، فالتراث الغربي ليس هو الـــنموذج الوحيد الذي يجب أن تمّر به جميع الأمم، أو اعتبار الغرب كما يرى حـــسن حنفـــي:" الـــنمط الأوحد لكل تقدم حضاري، ولا نمط سواه، وعلى كل الـــشعوب تقلـــيده، والـــسير على منواله. وقد أدى ذلك إلى إلغاء خصوصيات الشعوب وتجاربها المستقلة، واحتكار الغرب وحده حق إبداع التجارب الجديدة و الأنماط الأخرى للتقدم"[١].

ولمـــا كان التراث الغربي حاضرا في وعينا الحضاري منذ قدماء اليونان، فإنه من الحكمة التعامل مع هذا التراث بمنطق يحفظ للأنا وجودها وتميزها، كما يـــضع ألآخر ضمن حدوده الطبيعية.إن الغاية من كل ذلك في نظر حسن حنفي، هـــي تخلـــيص الأنـــا في صراعها من أشكال التقليد الأعمى، مهما كانت قوته ومـــصادره، وتحريـــر الأنـــا بفـــك القيود عنها، حتى تتمكن من الخلاص أولا، والإبـــداع ثانـــيا والاستقلال ثالثا، والتأثير في مجرى التاريخ واقتحام المستقبل

---

(1).حسن حنفي، ماذا يعني علم الاستغراب؟، دار الهادي للطباعة و النشر و التوزيع، الطبعة الأولى، سنة، ٢٠٠٠. ص:٥٧.

رابعا، وهذه الإمكانيات والآليات هي التي تمنحنا جواز السفر للمرور إلى مستقبل آمن ومستقر، نجد فيه إمكانية الانخراط في المجتمع الإنساني ونقترب قدر الامكان من الحداثة الحقيقية، على غرار المجتمعات التي سبقتنا في هذا المجال. وفي هذا الصدد يقول حسن حنفي:"من أجل تحرر الأنا من الوقوع في تقليد الغرب بعد أن تحررت من تقليد القدماء. و قد قمت بالجزء الأول في الرسالتين الفرنسيتين "تفسير الظاهريات"و "ظاهريات التفسير"، ثم "مقدمة في علم الاستغراب"، ثم دراساتي عن الفلسفة الغربية إما ترجمة أو تأليفا.و مازال في ذهني ثلاثية عن الوعي الأوربي، البنية والتطور، أصف فيه مصادر الوعي الأوربي ثم تكوين الوعي الأوربي ثم بنية الوعي الأوربي كي أحوّل الغرب من كونه مصدرا للعلم كي يصبح موضوعا للعلم"[1].

إن الأساس الذي يبني عليه حسن حنفي علم الاستغراب، يمكن اختزاله في الصيغة آلاتية:"دراسة الآخر من منظور الأنا".وعلى الرغم من قصر عمر الجبهة الثانية في وعينا القومي والحضاري، كما يرى ذلك حسن حنفي، إلا أنها تأخذ حجما كبيرا أكثر من حجمها الطبيعي، حيث أضحت الثقافة الغربية هي الإطار النظري والمنهجي لكل تقييم.وصارت الأنا تعيش في حالة من الاغتراب تجسدت في تقليد الغرب إلى درجة تقديسه أحيانا، وكأنها لا تملك إطارها النظري المستقل. وزيادة على هذا التصور الخاطئ عن التراث الغربي، يمكن أن نضيف إليه غياب الدراسات العلمية المتخصصة لذلك التراث من قبل العلماء والفلاسفة

(1).عبد الجبار الرفاعي، الفكر الإسلامي المعاصر، دار الفكر المعاصر، بيروت لبنان، ط١، سنة٢٠٠٠، ص:٢٢٠.

المسلمين لإظهار وإماطة اللثام عن مصادر الوعي الأوروبي التي حاول الفلاسفة الأوروبيين إخفاءها.

٣- الجبهة الثالثة:

تمثل الموقف من الواقع أو نظرية التفسير، يحاول فيها حسن حنفي أن ينظّر للواقع تنظيرا مباشرا عبر منهج ظاهراتي يتعامل مع الواقع كما هو دون التقيد بنصوص سابقة، أو بالاعتماد على الغرب، من خلال رصد مشاكل الواقع العربي وتصور حلولها الممكنة لمواجهتها والتقليل من حدتها. يقول حسن حنفي: "أحاول فيه- أي الموقف من الواقع- أن أرصد الواقع كفقيه، مشاكله وحلولها،وأحاول أن أحلل ظواهر الاستعمار و القهر والاستبداد والتخلف والتجزئة والفقر والتبعية واللامبالاة، لإنشاء فكر إسلامي جديد يعبر عن المرحلة الراهنة التي تمر بها الأمة، فليس المهم قراءة نص قديم بل إبداع نص جديد.الجبهة الأولى تمثل الماضي، والثانية تمثل المستقبل، و الثالثة تمثل الحاضر.

"التراث و التجديد" إذن هو وضع الفكر الإسلامي في الزمان و في مسارا لتاريخ حتى يتحرك من جديد، فنحن لسنا مستشرقين بل أهل الديار. الإسلام جزء منا ونحن جزء منه.نحن مسؤولون عنه، ولسنا فقط متفرجين عليه، نصدر أحكاما عليه بالخطأ و الصواب"[1].

و مما تجدر الإشارة إليه، في هذا السياق، أن هذه الجبهات ليست منفصلة عن بعضها البعض، لأن الأنا هو المحور الذي تدور عليه هذه الجبهات، وإنما جاء

(1).عبد الجبار الرفاعي، المصدر نفسه، ص:٢٢١، ٢٢٠، ٢١٩.

هذا التقسيم للضرورة المنهجية وما تفرضه الدراسة العلمية من مقتضيات.حيث يمثل الأستاذ حسن حنفي الجبهات الثلاث بأضلاع مثلث يتوسطها الأنا، إذ يمثل الضلع الأول لذلك المثلث التراث القديم، وهو يشير من حيث البعد الزماني إلى الماضـــي ويـــرتبط بالتالي بالموروث الحضاري، أما الضلع الثاني فيشير إلى التراث الغربي ويرتبط بالمستقبل والوافد من الغرب، أما الضلع الثالث فيرتبط بالواقع المباشر ومن ثمة فهو يشير إلى الحاضر.

ثالثًا: أصالة علم الاستغراب وعودة الوعي

بعد أن يكشف حسن حنفي عن جذور علم الاستغراب وامتداده التاريخي في عمـــق الـــثقافة العـــربية الإسلامية أو ربما قبل ذلك التاريخ، على اعتبار أن الاتـــصال والتواصـــل بـــين الشرق والغرب كان موجودا جغرافيا وحضاريا وتاريخيا.غير أن مضمون هذا العلم بدأ يتبلور لدى المفكرين المسلمين فقط منذ أكثـــر مـــن مائتـــي عـــام، واتخـــذ مظاهر شبه الاكتمال في مشروع "التراث والـــتجديد"، عند حسن حنفي، حيث يكرس هذا الأخير نشاطه العلمي والفلسفي لإكمال هذا المشروع.

إن من ضمن المبادئ التي يستند إليها علم الاستغراب والنتائج التي ستترتب عـــنه بعـــد ترسيمه كعلم قائم بذاته، له موضوعه، وأفكاره، ومنهجه، وأدواته وأسسه، نذكر البعض منها فيما يلي:

١- الـــسيطرة على الوعي الأوروبي أي احتواؤه بداية ونهاية، نشأة وتكوينا، وبالتالي يقل إرهابه لأنه ليس بالوعي الذي لا يقهر.

٢- دراسة الوعي الأوروبي على أنه تاريخ و ليس خارج التاريخ. صحيح انه تحقق على مراحل لا يمكن القفز عليها أو تجاوز مراحلها المتوسطة لكنه مع ذلك تجربة بشرية ومسار حضاري مثل غيره من التجارب.

٣- رد الغـرب إلـى حدوده الطبيعية، وإنهاء الغزو الثقافي، وإيقاف هذا المد الـذي لا حدود له، وإرجاع الفلسفة الأوروبية إلى بيئتها المحلية التي منها نشأت حتى تظهر خصوصيتها.

٤- القـضاء علـى أسطورة الثقافة العالمية، واكتشاف خصوصيات الشعوب، وأن لكـل شـعب نمطـه الحـضاري الخاص ووعيه المميز بل وعلومه الطبيعية وتقنيته الخاصة كم هو الحال في الهند والصين وإفريقيا وأمريكا اللاتينية.

٥- إفـساح المجـال للإبداع أمام الشعوب غير الأوروبية وتحريرها من هذا الغطـاء الذهني، وهذه البنية العقلية حتى تفكر الشعوب بعقلياتها الخاصة وأطرها المحلية، فتتعدد الأنماط وتتنوع النماذج.

٦- القـضاء علـى عقدة النقص لدى الشعوب غير الأوروبية بالنسبة للغرب، وقيامها بإبداعها الخلاق بدلا من أن تكون مستهلكة للثقافة والعلو والفن.

٧- إعـادة كـتابة الـتاريخ بمـا يحقق أكبر قدر ممكن من المساواة في حق الشعوب بدلا من النهب الأوروبي لثقافات العالم.

٨- بدايـة فلـسفة جديـدة للـتاريخ، تبدأ من ريح الشرق، واكتشاف الدوائر الحضارية وقانون تطورها اشمل وأعم من البيئة الأوروبية.

٩- انتهاء"الاستشراق" وتحول حضارات الشرق من موضوع إلى ذات، ومن أحجار إلى شعوب، وتصحيح الأحكام التي ألقاها الوعي الأوروبي على حضارات الشرق وهي في عمق نومها وخمولها.

١٠- إنشاء علم الاستغراب كعلم دقيق بعد أن ظهرت إرهاصاته لدى جيلنا ودون أن تتحول إلى علم، وتحويل الحضارة الأوروبية أيضا من دراسة موضوع إلى موضوع دراسة، والكشف عن مسار هذه الحضارة.

١١- تكوين الباحثين الوطنيين الذين يدرسون حضارتهم الخاصة من منظور وطني، وحضارة الغير بطريقة أكثر حيادا وإنصافا مما فعل الغرب مع غيره"[١].

إن بين إعلان المبادئ والنوايا التي تحدد مجال هذا العلم وآليات اشتغاله، وحالة الركود التي تعيشها المجتمعات العربية الجامدة، والتي لا ينكرها أحد، ولا يختلف فيها اثنان، يفترض الأمر مساءلة حقيقية، لتجاوز هذه الوضعية المفجعة للخلاص منها أولا، ولبناء مجتمع أفضل، يستجيب لمتطلبات الواقع، وانشغالات الأمة، وراهنية العصر. غير أن الإشكالية التي ظلت تواجه كل من يحاول أن يطرق هذا الباب، كانت تتمثل فيما يلي:كيف يمكن في آن واحد أن نتمسك بالتراث بأوسع معانيه من جهة، وندخل الحداثة ونستفيد من قيم العلم والحضارة من جهة ثانية؟ وكيف نكون أصلاء و معاصرين في نفس الوقت؟.

يعد علم الاستغراب، من أهم الحركات الفكرية التي عرفها الخطاب العربي المعاصر، إنه يشكل لحظة أصيلة في الوعي التاريخي العربي والإسلامي،

---

(1).حسن حنفي، ماذا يعني علم الاستغراب؟، المصدر نفسه ص:٧٢، ٧٣، ٧٤، ٧٥، ٧٦.

فرضـــته حالـــة التقهقـــر والتراجع الحضاري للأمة العربية، وتأتي أهمية هذه المحاولـــة التـــي يقـــودها حسن حنفي من كونها تحتل موقعا وسطا بين ثنائية الحركات الفكرية التقليدية التراثية التي تتخذ موقف الرفض المطلق من الغرب، بغرض التصدي للعدوان على الهوية الثقافية المستهدفة، والمحافظة على ألذات خوفا من مـــاولات التذويب والتغريب التي تتعرض لها باستمرار، وبين أنصار العلمانـــية والتفـــتح على الغرب، للاستفادة من قيمه العلمية و تجاربه المختلفة، ومـــسايرة الـــركب الحـــضاري، غيـــر أن حسن حنفي يرى أن كلا الموقفين خاطئـــين. و قد حان الوقت لتصحيح هذين الخطأين حيث يقول:"وقد آن ألأوان لتـــصحيح هـــذين الخطأين، ونقل الموضوع من مستوى الانفعال إلى مستوى الفعل، ومن ردود الأفعال إلى التحليل العلمي الرصين"[1].

أعـــتقد أن غمـــوض هـــذه المـــسألة يرجع إلى طريقة طرح المشكل بين المحافظـــين والمجددين، وهو طرح غير سليم، لأن المجددين يضعون التراث الماضـــي كقـــوة مـــضادة للتطور في الحاضر، بدل أن ينظروا إليه على أنه اســـتمرار الماضـــي في الحاضر، وضروري له كذلك، كما ينكرون المجهود العربي عبر الزمن، للتكيف مع متطلبات العصر. وبالمقابل لا يعقل ألا يستفيد الإنسان من منجزات العلم وخيرات الحضارة فمن يولي ظهره للحضارة يضع نفـــسه بالضرورة خارج التاريخ. وأعتقد أن أي مشكل يصبح قابلا للحل متى يطـــرح طـــرحا جـــيدا، ومتـــى توفـــرت كذلك الإرادة المخلصة للتعاطي مع الإشكاليات الحساسة والملفات الثقيلة المتراكمة كالجبال أمام الأمة العربية.

---

(1).حسن حنفي، المصدر نفسه، ص:٣٥، ٣٤.

لقد أكد حسن حنفي، على أن الغاية من علم الاستغراب هي تجاوز وليس الوقوف عند حدود نقد الاستشراق. لأن الاكتفاء بالنقد هو مجرد رد فعل، أي موقف دفاعي صرف، يعيب على الغرب دراساته غير الموضوعية عن الشرق و التي تحركها أسباب و دوافع كثيرة، والنتيجة أن هذا الموقف لا يقدم شيئا ايجابيا ولا يقدم البديل. فإذا كان الاستشراق هو دراسة الغرب للشرق فإن الاستغراب هو دراسة الشرق للغرب.

ويقول أيضا:" مهمة علم الاستغراب هي القضاء على ثنائية المركز والأطراف على مستوى الثقافة والحضارة. فمهما حاول رجال السياسة والاقتصاد القضاء على هذه الثنائية في ميدان السياسة والاقتصاد دون القضاء عليها مسبقاً في الثقافة فإن تبعية الأطراف للمركز في السياسة والاقتصاد قائمة. وطالما أن الثقافة الغربية هي المركز والثقافات اللا غربية في الأطراف ستظل هذه العلاقة أحادية الطرف، من المركز إلى الأطراف، علاقة المعلم بالتلميذ، والسيد بالعبد فالغرب هو المعلم الأبدي، و اللاغرب هو التلميذ الأبدي و العلاقة بينهما أحادية الطرف، أخذ مستمر من الثاني و عطاء مستمر من الأول"[1].

وقد علق الدكتور عبد الجبار الرفاعي على مهمة و أهداف علم الاستغراب قائلا:"وفي مقارنة الاستغراب بالاستشرق يلخص حسن حنفي مهمة الاستغراب، بأنه إذا كان الاستشراق هو رؤية الأنا من منظور الآخر، فان الاستغراب هو محاولة معرفية ترمي إلى فك العقدة التاريخية المزدوجة بين الأنا والآخر، والجدل بين مركب النقص عند الأنا و مركب العظمة عند الآخر". فمنذ

(1).حسن حنفي، المصدر نفسه، ص: ٥٩.

الاستـشراق القديم الذي و اكتمل في عنفوان المد الاستعماري الأوروبي لجمع اكبـر قدر ممكن من المعلومات عند الشعوب المستعمرة أخذ الغرب دور الأنا فأصبح ذاتا، و اعتبر اللاغرب هو الآخر فأصبح موضوعا.فالاستشراف القديم يعنـي رؤيـة الأنـا الأوروبي للآخر غير الأوروبي،علاقة ألذات بالموضوع المدروس[1]

والآن يحـق لـنا أن نتـساءل عن الأصول العلمية و الفلسفية التي مهدت لظهور علم الاستغراب، فما هي إذن الأسباب والدواعي التي تقف وراء الدعوة إلى تأسيس علم الاستغراب؟

يجيب حسن حنفي على هذا السؤال الذي طرحه عليه عبد الجبار الرفاعي بقـوله:"منذ وعيت نفسي مفكرا في موقف حضاري لجيلي، الإخوان المسلمون والحـرب العالمـية الثانـية، وضـياع فلسطين في(١٩٤٨) أدركت الجبهات الـثلاث:موقفنا من التراث القديم"الإخوان"، موقفنا من التراث الغربي(الحرب)، موقفـنا مـن الواقـع (فلـسطين).والأنا العربي الإسلامي المحاصر بين هذه الأوضـاع الثلاثة، أريد تحريرها من تقليد القدماء و تقليد المحدثين أي الغرب، و الهروب من الواقع أو التعامل معه تعاملا إنشائيا خطابيا بلاغيا"[2].

وباختـصار شـديد يعتبر كتاب حسن حنفي مقدمة في علم الاستغراب، والذي أعـاد تلخيصه في كتابه ماذا يعني علم الاستغراب؟،ـ هذا لكي تسهل قراءته

(1).حسن حنفي، المصدر نفسه، ص:١٦.

(2). عبد الجبار الرفاعي، الفكر الإسلامي المعاصر، مصدر سابق، ص:٢٥٠.

تعميما للفائدة ــ البيان النظري للجبهة الثانية من مشروعه الضخم الذي يتعلق بموقفه من التراث الغربي.

إن أهمية علم الاستغراب متأتية من مجموعة من العناصر، لعل أبرزها نجده عند الإمام باقر الصدر في التمايز الحضاري بين الشرق و الغرب، و في هذا الصدد يقول حسن حنفي:"إن أهمية محمد باقر الصدر هو هذا التمايز الشديد لديه بين الأنا والآخر كما وضح في" فلسفتنا"، "اقتصادنا" و هو تمايز جمعي وليس شخصيا بدليل ضمير المتكلم الجمع، بدلا من اعتبار الغرب مصدرا وحيدا للعلم وغيره من الشعوب ناقلة مستهلكة و معلقة ومهمشة وملخصة وعارضة له. هذا التمايز الحضاري هو الذي تحول بعد ذلك إلى علم الاستغراب"[1].

ولعل النظرة المتعصبة لبعض المستشرقين المغرضين، اللذين نظروا إلى الثقافة والتاريخ الأوروبي الغربي، بوصفه الإطار المرجعي لتحليل وفهم الشخصية الإسلامية كان مؤشرا ضروريا لقيام علم الاستغراب، لمواجهة حالة التغريب التي شملت جلّ مناحي الحياة، ولذلك يحاول علم الاستغراب القضاء على تلك الأوهام والصورة الوحيدة النمط التي رسمها الاستشراق عن حضارة الشرق، وهي نظرة لا تخلو من التحيز والتعصب أحيانا. ثم إن علم الاستغراب يمثل ضرورة قصوى في نظر حسن حنفي في عصر الثورة المضادة أي بعد الهجمة الاستعمارية التي يشنها الغرب في تحد سافر على الشعوب العربية، فإن كانت هذه الأخيرة قد نجحت في طرد المحتل الغاصب للأرض فإنها فشلت في

(1).المصدر نفسه، ص:٢٣٧.

تحقيق الاستقلال السياسي والاقتصادي والثقافي، بل والأخطر من ذلك أنها فشلت في تحقيق الاستقلال والتحرر الحضاري، ما دامت تنظر إلى الغرب كإطار مرجعي ومصدر للمعرفة ونموذج وحيد لكل تقدم حضاري مما يكرس تبعيتها بامتياز ويقلص حظوظها التواقة إلى التحرر من الهيمنة.

رابعًا: خاتمة

إن الدعوة إلى الحوار الحضاري، هو من صميم الدعوة الإسلامية، ففي القرآن الكريم نجد دعوة صريحة إلى الحوار بين الشعوب والأمم والملل، حيث يقول الله سبحانه و تعالي بعد بسم الله الرحمن الرحيم"قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا"، غير أن الإشكالية المطروحة هي: إذا كنا نحن نعترف بالآخر، ونعترف بالتعدد في الثقافة و العقيدة، فهل الآخر يعترف بنا كما نعترف به؟

يؤكد حسن حنفي عند تحليله للصور المتبادلة بين الأنا والآخر، على أن الأنا ظل تاريخيا يحترم التراث الغربي في كل مناسبة تاريخية، إلى درجة أن صار ذلك التراث محل إكبار عند الفلاسفة المسلمين أمثال الفارابي وابن سينا وابن طفيل وغيرهم، كما ظلت صورة الغرب مشرقة على أساس أنه مركز التنوير وألانوا ر وملهم قيم العدالة والعلوم والحرية والديمقراطية. لكن الغرب لم يرع هذه الصورة المثالية ولم يحافظ عليها، بل بالعكس رسم صورة كريهة عن الأنا ونعته بأبشع النعوت، واعتدى عليه، وعطل مسيرته الطبيعية من خلال جريمة الاستعمار، والأولى به أن يعترف بجريمته النكراء ويعتذر عنها للشعوب التي

دمرها ونهب ثرواتها وخيراتها. ويرى حسن حنفي أن الوقت قد حان لتصحيح تلك الصور الكاريكاتورية التي رسمها الآخر في ذهنه ووعيه عن الأنا، لاستبدال الوعي الزائف الذي روج له المتعصبون، وضرورة تحويل الالتقاء الحضاري من السلب إلى الإيجاب، لأنه لا يمكن أن يستمر الجهل المتبادل، والعداء الدائم بين الشعوب، بل لابد من خلق أسباب التفاهم والحوار بتحويل العلاقة بين الأنا والآخر إلى حالة طبيعية تعود بالمنفعة على الطرفين.

ومن جهة ثانية، إن حالة التخلف التي يمر بها العالم العربي، لا يمكن أن تعيق المسيرة نحو الأهداف التي ترسمها الأمة، والتي يبقى عليها أن تغير الأساليب والمناهج والذهنيات كلما تطلب الأمر ذلك، كما يقتضي منها الأمر كذلك التكيف مع التحولات التي يشهدها العالم من حولها، لتبقى الرهانات المصيرية التي ترتبط بانشغالات المواطن العربي ومستقبل الأمة العربية هي الانشغالات الدائمة كقضايا العلم والتعليم، والاقتصاد، والشغل والإصلاح السياسي، والديمقراطية، والتنمية الشاملة بصورة عامة.

إن عملية التنمية الشاملة للمجتمعات العربية، لا تتحقق إلا من خلال جيل مثقف يؤمن بالعقل كفعالية في التحويل، والحرية كظاهرة ملازمة للإنسان، والعلم كذريعة للحياة، وفلسفة ذات رؤية حضارية واضحة المعالم، وعندئذ سيتضح أن المسألة ليست مجرد كلام، و إنما هي روح وعقيدة مستمرة في الإنسان، لأن الإنسان لا يتوقف عن البذل والعطاء ما دام على قيد الحياة. وهذا الجيل الذي يقود الأمة يجب عليه أن يجسد انشغالاتها في الحاضر الملموس، و يفتح أبواب الأمل أمامها في المستقبل لمسايرة حركة التاريخ.

وهكـذا تكـون الحضارة الإسلامية القادمة كما يتصورها حسن حنفي، والتي تنتقل من أزمة الوعي إلى وعي ألازمة، لابدّ لها أن تعي حدود النموذج الغربـي مـن جهة، ومن جهة أخرى عليها أن تعي أخطاءها وأن تستفيد من تجاربها الناجحة كذلك، حتى لا تقع في نفس الأخطاء من جديد، كما ينبغي لها أن تؤسس لقيم جديدة ولحياة الإنسان، في عالم أكثر عدالة وانسجام و حرية و سـلام، بـدل الحـضارة الغربية التي قتلت كل شيء في الإنسان وأعلنت عن نهايـته و إفلاسـه، ونهاية كل مقوماته، وهذا بشهادة علماء و مفكري الغرب أنفـسهم أمـثال اشـبنجلر وفوكـوياما. لذلك يتطلب الوضع اليوم تكريس كل مقومات الأمة وطاقاتها المعطلة، من أجل مشروع حقيقي يجسد حق الأمة في الوجـود، بالوعي أولا بأنّ النموذج الغربي ليس هو النموذج الأبدي، أو على الأقـل لـيس هو النموذج الوحيد الممكن، وذلك بالقضاء على أسطورة التفوق الغربي التي صدّرها إلى الشعوب التي كان حظها من العلم والتكنولوجيا قليلا، لأنّ الوعـي هو مرحلة أساسية وضرورية يكشف عن ظاهرة صحية ترفض الاستـسلام، وتـبادر إلـى المقاومـة مـن أجـل خـصوصياتها الثقافية و الحـضارية.فلـيس من القدر المحتوم أن تعيش الأمة العربية و الإسلامية في الـتخلف الـدائم.لا سيما وأن أوضاع الأمة العربية اليوم تفضل بكثير أوضاع أوروبا في القرن الخامس عشر وما بعدها.

والمهم، أن ما يلفت النظر في مشروع حسن حنفي، هو الأمل، والإيمان المطلق والـواعد بمـستقبل الأمة العربية، وبضرورة استقلال الفكر العربي عن الفكر الغربي الذي حمله على أكتافه ردحا من الزمن، من أجل تحقيق نهضة إسلامية

شاملة قادمة تعادل النهضة الأولى في القرن الرابع الهجري، لأن التخلف ليس من قدرنا. وفي الحقيقة لقد اقتصرنا في الماضي على تحرير الأرض والأوطان من دون تحرير العقول والثقافة، وكذلك من دون تحرير الأنا من بقايا الاستعمار العالقة بالذهن والمترجمة في السلوك، بعدما تم طرد المحتل من الأرض.إن تحرير العقول من التبعية الفكرية للغرب أصبح واجبا ومسؤولية، لأنه يمثل فرصة حقيقية للإبداع الذاتي، ذلك الإبداع الذي يتجاوز حدود المشترك والعادي وينفذ إلى صميم البنى والقوالب العميقة التي تفرز التحولات الحقيقية الكبرى للشعوب والحضارات.

ويكفي حسن حنفي فخرا أنه أقام سورا حول البيت العربي لحمايته، وأدرك بعمق وفهم كبيرين مقولة عرب الجاهلية(ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدم)، وطرق بابا من خلال هذا المشروع الضخم الذي لا يضاهيه سوى مشروع محمد عابد الجابري في نقد العقل العربي. حيث نجد الأستاذ حسن حنفي واحدا من المفكرين القلائل في العالم العربي، الذي يحمل هما فكريا يحاول أن يتقمص روح الأمة التي أصبحت تسير عكس حركة التاريخ أو ربما تريد الخروج من التاريخ، لأن مشروع علم الاستغراب لم يوجد جزافا بل وجد لحاجة ملحة تتضمن الحفاظ على مقومات الحياة ومتطلبات الحضارة وخصوصيات الهوية، حيث تبقى القيم التي يتضمنها تمثل الأرضية والقاعدة للانطلاق في الاتجاه الصحيح لأنها إحدى وصفات العلاج الممكنة للخلاص من الدائرة الجهنمية التي يدور في فلكها العالم العربي منذ زمن بعيد. وفي الأخير يتمنى ويرجو حسن حنفي ألا تمر الأجيال القادمة بما مرت به الأجيال السابقة

من انتكاسات أو أزمات، ويتمنى كذلك أن تنجز الأجيال القادمة ما عجزت عن إنجـــازه الأجـــيال الـــسابقة، بسبب حصار الزمن، ويبقى علم الاستغراب على المستوى النظري يشكل لحظة القطيعة التاريخية مع تاريخ أهم ما ميزه التسلط والقهر والعنف، ليعلن حسن حنفي ــ من خلال التأسيس لعلم الاستغراب وبعقل متفـــتح وهـــادئ وبصيرة نافذة وقلب صادق وعامر بالأمل ــ عن نهاية وعي الآخر وبداية وعي الأنا، في طور تاريخي جديد.

لكن، يبقى التساؤل مطروحا، و القلق مشروعا النابع من توتر ألذات بفعل الأســـئلة الحارقة حول متى وكيف يتحول مشروع علم الاستغراب من مرحلة التنظيـــر إلـــى مرحلة التطبيق الفعلي الواقعي ليرى النور، ويجسدّ على أرض الواقع، وأين هي المؤسسات العلمية والثقافية والهيئات السياسية التي تتبنى هذا المـــشروع وتستوعب أبعاده الفكرية، وتعتني به، ليتحول من الوجود بالقوة إلى الوجـــود بالفعـــل، كعلم له موضوعه وآلياته ومناهجه، وأهدافه العلمية وغاياته الإنسانية وأبعاده الحضارية، حيث يستطيع أن يحدد أين هو من رؤيته ورسالته التي يسعى إلى تحقيقها دون أي اعتبارات ذاتية أو إيديولوجية خارجة عن إطار البحث العلمي النزيه، ومع احترام كامل لحضارات الشعوب الغالبة والمتفوقة، وكذلك أمام التحديات الداخلية المتلاحقة في مجتمعنا العربي الذي لا يزال غارقا في أوهامه وصراعاته الإيديولوجية، أم سيظل علم الاستغراب مشروعا مؤجلا وحلما مجهول المصير في ظل التحديات العالمية الجديدة.